مدخل إلى الليتورجيا

المقدمة

أولا أهمية الليتورجيا في حياتنا المسيحية

لليتورجيا أهمية كبرى في حياة الكنيسة الجامعة

1. بواسطتها يتلقى المسيحيون النعم الإلهية، لأن أسرار الكنيسة السبعة، التي تنظمها الرتب الطقسية هي القنوات التي تنقل لنا نعم الخلاص عبرا حياة المسيحي كلها. حياته الأرضية، موته وقيامته المجيدة.
2. تحتوي الليتورجيا كذلك على الصلاة الطقسية التي ليست صلاة تقوى فردية[1]، بل صلاة جسد المسيحي السري كله، لذا لها قيمة خلاص كبرى لأنها معضوده باستحقاقات المسيح والمؤمنين القديسين الذين رفعوا هذه الصلوات في الصوامع والأديرة والكنائس عبر الأجيال كلها ولا زالوا. إنه نشيد التسبيح يرتفع من الأرض ويلتقي تسبحه أجواق السماء.
3. كما أن الليتورجيا لها دور تهذيبي وتعليمي، بواسطتها تعبّر الكنيسة عن إيمانها وعقيدتها، وبواسطتها تعلم أبنائها ايمانهم وعقائدهم. كما ان كل الرتب تحوي قسما تثقيفيا يحتوي على قراءات الكتاب المقدس والموعظة والمداريش.
4. لذا فإن الليتورجيا كانت ولا زالت إحدى العناصر المهمة التي حافظت على الإيمان المسيحي في كل بلدان العالم. لذلك من الضروري جدا دراستها في المعاهد الكهنوتية وفي الدورات اللاهوتية لتتمكن من استيعابها وممارستها بأسلوب حي وتطويرها وفق مقتضيات حياتنا المعاصرة من قبل أبنائها.

ثانيا أهمية دراسة الليتورجيات

1. تعلمنا كيف نشأت الطقوس الحالية، وما هو دور المسيح والتقليد والكنيسة في تكوينها.
2. كيف تطورت وتعددت الليتورجيات ولماذا.
3. إعطاء نبذة قصيرة عن كل كنيسة شرقية وعن ليتورجيتها.
4. تطور دراسة الليتورجيا خلال السنوات الخمسين الأخيرة.

ثالثا تجيب دراسة الليتورجيا على التساؤلات التالية:

1. هل أن الأسلوب الحالي الذي نتبعه في ممارسة الطقوس الليتورجيا هو صحيح؟
2. هل ممكن أن نطور الطقوس وتغييره؟
3. ما هي الأمور التي يمكن تطويرها في الليتورجيا وما هي الأمور التي لا يجوز المساس بها أو تغييرها؟

[1] ان الصلاة عند كل الكنائس الشرقية هي جماعية، وهذا واضح في رتبها الليتورجيا. فصلاة الليتورجيا لا تحث المؤمن بالبحث فقط عن الملجأ والحماية في كنف الرب، لكن ايضا الاتحاد والانضمام الى قطيعه. فيصبح المؤمن عضو في الجماعة، وجزء فعّال في جسد الكنيسة بحسب دعوته ومكانته ومرتبته الكنسيّة (مؤمن، شماس، كاهن، راهب ...).

الفصل الأول

معنى الليتورجيا وتعريفها

أولا: معاني كلمة الليتورجيا

1. المعنى الحرفي

إن مصطلح "الليتورجيا" يستعمل في اللغات كافة، وبضمنها اللغة العربية. إلا أن أصل الكلمة هو يوناني متكون من مصدرين.

أ. "leiton" التي تعني "الشعب"، ونشتق منها في اللغات الأوروبية كلمات مثل "laic" علماني.
ب. "Ergon" والتي تعني "عمل، شغل، خدمة، صلاة".

2. لدى اليونان القدامى

أ. تشير كلمة ليتورجيا لدى اليونان القدامى إلى معاني سياسية واجتماعية ودينية: *إنها كانت تعني أداء خدمة ما أو القيام بمهمة ما في سبيل خدمة الشعب، أما من قبل المسؤولين عن قيادته في احلال العدالة والسلام، أو من قبل مواطنين أثرياء يقدمون خدمات دورية خلال السنة، مثلا إعداد احتفالات الأعياد أو في مناسبات طارئة مثل إعداد البواخر آبان الحروب.*

ب. وفي اللغة اليونانية الكلاسيكية المتأخرة، تعني كلمة الليتورجيا: *الخدمة التي يؤديها الشعب للآلهة. إذ تشير كلمة الليتورجيا إما إلى الخدمة التي تُقدم للشعب، أو الخدمة التي يؤديها الشعب.*

3. في العهد الجديد

تأتي كلمة الليتورجيا في العهد الجديد بشكل محدود، **15 مرة فقط**، وتشير إلى معاني عديدة، وهي:

أ. **العبادة الطقسية في العهد الجديد:** "فلما انتهت أيام **خدمته** انصرف إلى بيته". لوقا 1: 23.
ب. **خدمات إجتماعية:** "إن كان الوثنيون قد شاركوهم في خيراتهم الروحية، فكان من الحق عليهم أن يقدموا لهم **خدمات** في الأمور المادية" روم 15: 27. 2 قور 9: 12.
ت. **عبادة المسيحيين الجديدة:** "وفيما كانوا ذات يوم يقدمون **ليتورجيا** الرب". رسل 13: 2.
ث. **العبادة المسيحية الروحية:** على نقيض عبادة العهد القديم المتسمة بدم الذبائح. روم 15: 16. فل 2: 17.

4. المعنى الحالي:

تشير كلمة "ليتورجيا" في نصوص الكنيسة اليونانية الى رتبة معينة واحدة فقط وهي "القداس الإلهي" وإلى صيغه المختلفة، فيقولون مثلا: ليتورجيا مار يوحنا فم الذهب، ليتورجيا القديس باسيليوس، ليتورجيا ما ر أدي وماري.

5. معنى كلمة الطقس

إن كلمة "طقس" يونانية الأصل كذلك، يفيد معناها الترتيب والنظام. فبينما تستعملها العامة للدلالة على حالة الجو، فتقول مثلا: الطقس بارد أو حار، ففي العرف الكنسي "الطقس" يعني "الرتب الدينية الكنسية".

ثانيا: تعريف الليتورجيا

إن الليتورجيا ظاهرة حياتية، لأنها تعبر عن المشاعر الإيمانية التي يعيشها المؤمن في زمن معين وفي مكان معين، لذا فإنها خاضعة لسُنّة التطور والتجدد المستمر، فمن الصعب إيجاد تعريفات قصيرة تعبّر عن كل جوانبها، فلا يمكن للإنسان أن يفهمها إلا من خلال ممارسته لها.

أن مفهوم الليتورجيا تطور عبر السنين. ففي البداية استرعى انتباه الباحثين المظاهر الخارجية، إلى درجة أنهم أهملوا أحيانا المعاني الروحية الكامنة فيها، ولكن، تبلور تدريجيّا هذا المفهوم عبر وثائق الكنيسة الرسمية، فازداد وضوحا وتكاملا.

أخيرا إلليتورجيا هي: **مجموعة الرموز والكلمات والحركات التي تعبر بها الكنيسة بالاتحاد مع المسيح رأسها، وعن العبادة الواجبة لله.**

الليتورجيا ومظاهرها الخارجية

تتضمن الليتورجيا إذن الأمور التالية:

1. **مجموعة رموز:** وضعها السيد المسيح او الكنيسة، لتذكير المؤمنين بالحقائق السماوية أو للدلالة عليها. إن الذهن البشري ولا سيما ذهن عامة الشعب، شديد التأثر بالرموز التي تشير عن طريق العلامات الحسية إلى أمور تفوق إدراك الحواس، والطقوس الشرقية بنوع خاص غنية بالرموز أكثر من سواها.

للرمز منفعتان، منفعة خاصة مباشرة: لكونه وضع لفائدة عملية خاصة. ومنفعة رمزية غير مباشرة: كونه يدل على شيء آخر يسمو عليه. فالشمعة مثلا التي تُضاء على المذبح المقدس، لها أولا منفعتها المباشر في إنارة المكان، كسائر أدوات الإنارة، ولها أيضا فائدة رمزية، لأنها تشير إلى نور المسيح وإلى نور تعاليمه الإلهية وإلى نور المسيحي الذي لا يضيء في العالم إلا إذا ذاب كالشمعة على هيكل الذبيحة. كرتبة الإنارة اليومية في العهد القديم وفي الطقوس المسيحية. كما ان للبخور منفعته المباشرة تكمن في إشاعة الروائح العطرة في الكنيسة وله فوائد رمزية أيضا: يرمز و إلى طيب محبة المسيح وإلى طيب النعم اللإهية التي تنقّي الإنسان من أدران الخطيئة الكريهة. وهي كذبيحة تقدم تكفيرا عن الخطايا... كرتبة التبخير اليومية في العهد القديم.

غير أن لبعض الرموز منفعة رمزية فقط إذ إنها وضعت من أصلها للدلالة على الرموز له لا غير.

2. **مجموعة كلمات:** ثم أننا نجد في الطقوس الكنسية كلمات، أي تعابير لفظية مختلفة، لأن الكلام هو أداة التعبير العادية عن نطقنا الداخلي. أجل ليس الله تعالى بحاجة إلى أي تعبير حتى يدرك ما يريد الإنسان أن يبلغه إياه، الا أن الكلام البشري ضروري للإنسان في صلاته إلى الله، لأن النطق الخارجي

يبلور فكرتنا ويسند عاطفتنا، ويمنع التشتت، ويربطنا قلبا وفما بالذين يصلون معنا. فضلا عن ذلك، فالتعابير اللفظية وحدها تتيح للمؤمن إقامة الصلاة الرسمية العامة والتي لها قيمة ممتازة، إذ وعد المسيح بأنه حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمه يكون فيما بينهم، هذا ويزداد الكلام رونقا وتأثيرا إذا أنشد بالأنغام الكنسية الجميلة، فالترنيم في الكنيسة صلاة مضاعفة.

3. **مجموعة حركات** أخيرا نجد في طقوس الكنيسة حركات مرتبة من شأنها أن تجعل الإنسان يصلي بكل مقومات شخصيته، نفسا وجسدا، إذا إن الجسد هو أيضا خليقة الله، ويتوجب عليه أن يسجد لله، ويكفّر مع النفس عن خطاياه ويعضدها في ارتفاعها لمناجاة الله، ويعبر بخشوعه عن خشوعها.

الفصل الثاني

قوانين الليتورجيا وقواعدها الأساسية

اولا: التقليد الليتورجي

أ. الليتورجيا ظاهرة ثابتة موجودة في الواقع، ولكنها في صيرورة مستمرة:

تتسم الليتورجيا بصفتين متكاملتين ومتلازمتين

1. **الليتورجيا ظاهرة ثابتة:** إن هذه الصفة الأولى تعكس طابع الليتورجي اللاهوتي الروحي لأنها **صوت الكنيسة** المنتشرة على الأرض عبر الأجيال كلها. لا بل إنها صوت المسيح تردده الكنيسة الواحدة في كل مكان وزمان. إن ما تمارسه اليوم يمثل جوهر ما مارسه المؤمنون في الماضي وهو نفسه ما سيمارسه المؤمنون بعدنا في المستقبل. القداس الإلهي مثلا هو هو نفسه أمس واليوم وغدا. الليتورجيا اذا، ممارسة مسيحية متميزة مرتبطة بعمل المسيح الكهنوتي داخل الكنيسة.
2. **الليتورجيا في تطور مستمر:** إنها لم تنزل من السماء مرة واحدة كاملة مكملة، ومتشحة بشكل محدد منذ البداية، لأن الليتورجيا يمارسها بشر، يعيشون في أزمنة وأمكنة مختلفة، فتتأثر بظروف كل زمان وكل مكان. إنها مرتبطة بطابع البشر الذين يتجددون باستمرار، كما إنها تخضع حتما لتطورات مستمرة. إن التغيرات والتطورات والتجدد لا يجب ان يمس جوهر الليتورجيا أو ذاتها، ولكن فقط أشكالها الخارجية. الليتورجيا تبقى ذاتها. إنها حياة الكنيسة، ككائن حي، وأن هذه التغيرات علامات حياة.

ب. الليتورجيا تقليد كنسي وقاعدة الإيمان الثابتة

للوحي مصدران الكتاب المقدس والتقليد الكنسي. ويتجلى التقليد الكنسي في احدى وجوهه في الليتورجيا، وهي:

1. الليتورجيا تقليد ينقل إلينا الأسس والقواعد والعقائد التي أرادها يسوع المسيح في إنشاء ملكوته. إننا نجد فيها ممارسات طقسية مثلا: "اصنعوا هذا لذكري" لو 22: 19. "...وعمدوا باسم الآب والابن والروح القدس" متى 28: 19. "ومن غفرتم خطاياه غفرت له، ومن أمسكتموها أمسكت له" يو 20: 23.
2. إن قيمة الليتورجيا الثابتة يتجلى من خلال المثل الذي قاله البابا سيلستانس الأول (422- 423م) "إن قاعدة الصلاة أساس لقاعدة الإيمان". أي إن الكنيسة تعبر عن عقائد الإيمان الذي استلمته من مؤسسها من خلال:

الليتورجيا، الصلوات، والرتب، والأفكار والتي نجدها في رتب الأسرار وفي الصلاة الفرضية. إذن يمكننا القول إن وجود العقيدة الفلانية في ليتورجيا الكنيسة الشاملة برهان إنها تأتي من الينبوع الأصيل، من الرسل ومن المسيح، إنه تقليد كنسي مقدس.

ج. التقليد الرسولي يتضمن الطقوس والمراسيم

يقول القديس بولس: "بلغت إليكم قبل كل شيء ما تلقيته ... 1 قور 15: 13". إن التقليد الذي استلمه الرسل من المسيح، وسلموه بدورهم إلى الأجيال المسيحية، لا يتضمن فقط التعاليم العقائدية، ولكن أيضا الأسرار الخلاصية التي يجب ممارستها والاحتفال بها، وهكذا فإن عبارة تقليد تتضمن العادات والصياغة والرتب والطقوس التي مارسها المسيحيون منذ البداية في الليتورجيا.

ثانيا: التطور الليتورجي الحيوي

1. الليتورجيا إلهية وإنسانية في آن واحد

من خواص الليتورجيا التعبير عن الإيمان المسيحي والتبشير به. من الطبيعي أن نؤكد بأن هذا الإيمان لن يتسم بالحياة والحيوية إذا كرز به بنفس الأسلوب في كل مكان وزمان، لذا فإن الليتورجيا لا يمكنها ألا تتسم بالتنوع والتطور. إذن الليتورجيا تتسم بصفتين إلهية وبشرية في آن واحد.

هكذا فإن الليتورجيا إذ هي تعبير عن حياة الكنيسة فإنها تدخل مجال التاريخ مع الكنيسة، أي إن الليتورجيا تتأطر ضمن أطر زمان معين ومكان معين، وهكذا تتلقى تأثيرات خارجية في مسيرة تكوينها وتطورها.

2. التأثيرات الخارجية على الليتورجيا

نعني بالتأثيرات الخارجية، تلك التي أحاطت بنشأة الليتورجيا وتطورها، إنها لا تمس جوهر الليتورجيا الذي يتمثل في التقليد الصادر من يسوع المسيح ومن الرسل، ولكن شكلها الخارجي المتنوع وفق الأمكنة التي تمارس فيها، ووفق الأزمنة والشعوب والحضارات والمحيط الديني والعادات الاجتماعية والمدنية... الخ.

غالبا كان هذا التأثير جيدا ولكنه، أحيانا كان سلبيا. ولكي نميز بين الأمرين، فالمقياس هو: هل إن التطور جعل الليتورجيا بصفتها تقليد المسيح والرسل أكثر إشراقا أم لا؟

3. ألوان الليتورجيا

أ. إن التأثيرات الخارجية هي التي أدخلت التنوع في الليتورجيا، هكذا نشأت الليتورجيا اللاتينية والكلدانية والسريانية والقبطية.

ب. أحيانا كان مصدر هذا التنوع مدن معينة مثل روما سلوقيا أنطاكيا الإسكندرية الرها الدير الأعلى[2].

ت. أو تأثير طبيعة الشعوب وعبقريتها الخاصة وتراثها. الكلدان كانوا أطباء، اما الأقباط فكانوا مهندسين.

[2] تمثل روما مركز التقليد اللاتيني، وسلوقيا مركز كنيسة المشرق الكلدانية، والإسكندرية مركز الكنيسة القبطية، وانطاكيا مركز الكنيسة السريانية، والرها مركز الكنيسة البيزنطية.

ث. تأثير لتورجيا على ليتورجيا أخرى. ليتورجيا أورشليم أدخلت رتب طقسية في الليتورجيات الأخرى مثل ربتة السجود للصليب، رتبة أسبوع الآلام وزمن تقديس الكنيسة.

ج. استنادا إلى ما جاء أعلاه يمكننا أن نؤكد بأن التنوع لا يسيء إلى وحدة الليتورجيا الجوهرية، إن سرَّ المسيح يعاش ويعبر عنه ويعلن بأساليب مختلفة.

4. في استقرار الليتورجيا في شكل واحد

إن الحركة التي أدخلت التنوع في الليتورجيا فقدت من تأثيرها بعد مرور فترة من الزمن، وهكذا بدأت مرحلة الاستقرار، واتخذت الليتورجيا شكلا واحدا ثابتا. أما أسباب الاستقرار والركود أحيانا فهي:

أ. **التقليد المكتوب:** حين تتسلم الأجيال اللاحقة الليتورجيا مثبتة في وثائق، تُتخذ لها طابعا قانونيا. تشعر هذه الأجيال المتأخرة بواجب تكرار ما استلمته خوفا من تغيير التقليد الذي تركه بعض القديسين.

ب. **المجامع المسكونية[3] والمحلية[4]:** ثبتت المجامع العديد من القضايا الطقسية دون الأخرى، فأختلط فيما بعد أيهما يمكن أن يكون أساسيا وأيهما ممكن أن يكون ثانويا.

ت. **التأثير الديني والمدني لبعض المدن:** كان لبعض المدن الكبرى ليتورجيات معينة تم فرضها على الآخرين. مثلا: القدس: كان لها تأثير كبير في تكوين الليتورجيات وذلك من خلال الحجاج. قسطنطينية وروما: فرضت ليتورجيات على الآخرين حيث كان المبشرون ينقلون إيمانهم المسيحي وليتورجياتهم الخاصة للشعوب التي تستلم بشار تهم.

ث. **عزلة بعض المناطق:** كان للتأثير السياسي تأثيرا واضحا في إنعزال بعض الشعوب المسيحية عن الحضارات الأخرى بسبب الخلافات السياسية "بين الفرس والرومان" كالتقليد الكلداني والأرمني.

ج. **الكتاب المقدس:** فرض الكتاب المقدس بعض الصلوات وصيغ افخارستيا، والتي أصبحت قاعدة في كل الليتورجيات.

ح. **بعض التقاليد:** اشتركت بعض الشعوب الكثيرة من الشرق والغرب في حمل نفس التقليد لذا نراها متكررة هنا وهناك.

ثالثا: مراحل تطور الليتورجيا

اجتازت الليتورجيا في تطورها في مختلف الكنائس أربعة مراحل منذ نشأتها وإلى نهاية العصر الوسيط.

1. مرحلة التلقائية (القرن 1-4)

في البداية لم يكن هناك كتاب طقسي عدا الكتاب المقدس "العهد القديم". لقد ورثت الكنيسة عادة قراءة نصوص العهد القديم في اجتماعات المؤمنين من طقوس العهد القديم واليهود. وأضافت إليها قراءات من العهد الجديد بعد توفرها بعد ذلك. وكانت المزامير والتراتيل الكتابية تمثل كتاب الألحان الذي يستقي المؤمنون منه أناشيدهم الروحية.

[3] المجامع المسكونية: هي اجتماعات لأساقفة وقادة الكنائس المسيحية المختلفة من "المسكونة" (العالم أجمع، الشرق والغرب) تُعقد لتحديد قضايا الإيمان والعقيدة والقوانين الكنسية. تهدف هذه المجامع، التي غالباً ما دعت إليها السلطة الإمبراطورية، إلى تثبيت التعاليم الصحيحة، والرد على الهرطقات، وتعتبر قراراتها ملزمة للكنيسة الجامعة بأكملها.

[4] المجامع المحلية: هي اجتماعات لأساقفة ورئيس كنيسة مسيحية واحدة فقط. تُعقد لتقرير قضايا الأنظمة الكنسية الخاصة، والتي يدعوا لها رئيسها فقط "البطريرك" وتعتبر قراراتها ملزمة لتلك الكنيسة فقط.

أما بالنسبة للصلوات والصيغ الليتورجيا التي كان الكاهن أو الأسقف يرفعها، فلم يكن هناك نصوص موحدة ومثبتة. مثلا: بالنسبة لنص سر العشاء الرباني في القداس "أي تأسيس الأفخارستيا" فإننا لا نجد في الوثائق نصا موحدا ولا حتى في النصوص الأربعة التي نجدها في العهد الجديد. كذلك بالنسبة إلى رتبة العماد مثلا التقليد الكلداني لديه صيغة "ليُعمد ..."، أما التقليد الإسكندري فصيغة العماد هي "أنا أعمدك...".

من هذا كله نقول: لا يجوز البحث عن ليتورجيا رسولية وحيدة تفرعت منها فيما بعد الليتوجيات الأخرى المختلفة.

كان على الكاهن أو الأسقف أن يتقيد بأفكار رئيسية ومن ثم كان له الحرية في صياغة العبارات بإسلوب تلقائي حسب ما يلهمه الله ووفق مقتضيات الساعة. يقول مار جوستينوس (توفي عام 150م): "بأن المحتفل في القداس يقول صلاة الأفخارستيا بالقدر الذي يمكنه أو كما يستطيع" والقارئ "يقرأ كذلك بالقدر الذي يمكنه".

وحينما يذكر مار هيبوليتوس الروماني (عام 250م) بعض الصيغ لصلاة الأفخارستيا والرسامات" فإنه يقدمها كنماذج وليس كنصوص إلزامية إذ يقول في نهايتها: "ليس من الضروري بتاتا أن يتلفظ بنفس الكلمات التي ذكرناها سابقا".

إذن كان يوجد وحدة في الأفكار الجوهرية، وحرية وتعددية في التفاصيل، وهذا الأمر نلاحظه في العهد القديم في صلاة البركة.

2. في مرحلة صياغة الصلوات الطقسية منتصف القرن

ان زيادة عدد المسيحيين، وتنظيم حياتهم الجماعية، وإنشاء أماكن كبيرة للعبادة[5]، أمور خلقت الحاجة إلى نظام ليتورجي محدد. لذلك يزداد عدد الرتب والصلوات الطقسية المثبتة كتابة. يتذمر القديس أوغسطينوس (354- 430م)، من بعض الأساقفة الذين يستعملون صلوات كتبها مؤلفون غير مؤهلين لذلك، لا بل أحيانا هراطقة، وبسبب وجود كهنة غير مؤهلين ثقافيا وهراطقة، ظهرت الحاجة الماسة لتحديد صيغ وتثبيت صلوات وإرساء أسس وقوانين لذلك.

هكذا فإن القوانين التي أصدرتها مجامع محلية أو مسكونية وتأثير الكنائس الكبيرة، روما أنطاكيا الإسكندرية سلوقيا، خلقت أنواع الليتورجيات الموجودة حاليا، ومن ثم يبدأ يتحقق بعض التوحيد في بعض المناطق.

إن مرحلة خلق الصيغ الليتورجيا بدأ منذ منتصف القرن الرابع حتى نهاية القرن السابع، خلال هذه الفترة نجد نشاطا ليتورجيا كبيرا، خاصة مع مار باسيليوس ومار يوحنا فم ذهب، ثيودورس المصيصي، مار افرام، نرساي، إيشوعياب الثالث (650- 658م).

3. مرحلة التجميع (القرن 8- 12)

إن نشاط التأليف على الصعيد الطقسي لم يتوقف تماما بعد القرن السابع، إلا أن مسيرته إعتراها البطء. لأن الجهود تحولت من تأليف الصيغ الجديدة إلى تكييف الصيغة القديمة حسب مقتضيات الحاجة وإلى التجميع.

هكذا تحقق تطور الليتورجيا خلال هذه المرحلة من خلال إعادة النظر في الصيغ القديمة والاقتباس من الكنائس الأخرى، فإننا نلاحظ خلال هذه الفترة انتقال أنافورات أنطاكيا إلى الإسكندرية مثل أنافورة مار باسيليوس الإسكندري، وفي

[5] أصدر قسطنطين الكبير إمبراطور الغرب وليقينيوس إمبراطور الشرق مرسومًا سمّي بـ "مرسوم ميلانو" عام 313م، أمرا بمقتضاه بالتسامح الدينيّ، وأقرّا حرّيّة العبادة التامّة لجميع مواطني الإمبراطوريّة بمَن فيهم المسيحيّون. فوضع حدًّا لثلاثة قرون من الاضطهادات مارستها الدولة الرومانيّة ضدّ الكنيسة وضدّ المسيحيّين، مفتتحًا عصرًا جديدًا للمسيحيّة وأنهى عصر الاضطهادات.

كنيسة ما بين النهرين تبني أنافورة ثيودورس المصيصي " تريانا" وأنافورة نسطورس القسطنطيني "تليثايا". كما أن البطريرك مار آبا الأول (490- 552م) كان قد زار مواطن مسيحية عديدة سنة 530م وجلب معه نصوصا طقسية وعوائد أعجبته لدى الكنائس الأخرى وأدخلها في الطقس الكلداني. أن ترتيلة "قدوس الله قديشا آلاها" واحدة منها. بالرغم من انفصال بعض الكنائس بسبب العقيدة إلا أنها لم تنعزل بعضها عن البعض الآخر، فاقتبست الواحدة من الأخرى، وهكذا نشطت في الشرق خلال هذه الفترة حركة الترجمة.

4. مرحلة تثبيت الليتورجيات (القرن 13-14)

يمكنني القول إن مرحلة صياغة الطقوس ومرحلة التكييف والتجميع والاقتباس قد انتهت عموما في القرن الثالث عشر، وبأن الليتورجيا تأخذ شكلها الثابت الذي نلاحظه حتى يومنا هذا.

بدون شك عملية التأليف لم تنقطع تماما، ولكن هذا الامر لم يمنع من ان بنية الليتورجيات قد أخذت شكلها الثابت، وإن عناصرها الأساسية أصبحت ثابتة، مثلا: السنة الطقسية، رتب الاسرار، أسلوب اختيار قراءات الكتاب المقدس، الالحان الطقسية ... .

إن طبعات الكتب الطقسية التي ظهرت الى الوجود في العراق وفي روما وغيرها اعتمدت مخطوطات القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، وبذلك قد كرست هذا التثبيت.

الفصل الثالث

الطقـــوس الشــرقـيــة

أولا: نشأة الطقوس الشرقية

يمكننا إيجاز المعطيات السابقة على النحو التالي:

1. بعد حلول الروح القدس على الرسل انتشروا الرسل في الشرق والغرب وحملوا البشرى السارة، أي الإنجيل المقدس لشعوب الأرض، فاعتنقت هذه الشعوب الديانة المسيحية.
2. كان لهذه الشعوب حضارات عريقة.
3. هذه الشعوب حافظت على جوهر الإيمان المسيحي والتقليد المسيحي الرسولي.
4. إلا أنها عبرت عن معتقداتها المسيحية وعن مشاعر عبادتها بلغتها الخاصة وحسب عبقريتها الخاصة وعاداتها الخاصة، وهكذا نشأت في كل مدينة طريقة أو طقس خاص في صلواتها ومراسيم عبادتها.

أن العلماء الليتورجيين اليوم متفقون بأنه الرسل وخلفائهم لم يرسموا للمسيحيين طقسا معينا، فكان لكل الرؤساء الكنسيين في العصور المسيحية الأولى ملئ الحرية في إقامة الطقوس كلٌّ على طريقته.

ولكن مع الزمن تسرب إلى العواصم المسيحية الكبرى شيء من التوحيد في إقامة الطقوس وامتدت حركة التوحيد من هذه العواصم إلى المناطق المجاورة. نلاحظ بأن عواصم المناطق المجاورة تفرض طقسها الخاص على المنطقة بأسرها، وذلك حسب التنظيم الكنسي الناتج من المجامع المحلية والمسكونية والذي ساعد خلال القرون الخمسة

الأولى، **فالتنظيم الكنسي الجغرافي يتبع التنظيم المدني والسياسي في تلك الحقبة**. نحن نعلم بأن كان ثم إمبراطوريتان كبرى وهم: الرومانية والفارسية.

- الإمبراطورية الرومانية: منذ زمن الإمبراطور ديوقلسيانوس (294م) كانت الإمبراطورية قد قسمت إلى عدة أقاليم والأقاليم إلى أبرشيات. من هذه الإبرشيات مصر وعاصمتها الإسكندرية، وأبرشية الشرق وعاصمتها أنطاكيا. وبعد فترة قصيرة سيؤسس الإمبراطور قسطنطين عاصمته الجديدة القسطنطينية اسمها "بيزنطيا" وذلك سنة (325م) لتترأس أبرشية آسيا الصغرى (حاليا تركيا)، فتتشكل البطريركيات في هذه العواصم. تزعمت هذه البطريركيات كل منها السلطة الكنسية في الإبرشية التابعة لها، فنتج من ذلك أولا إندثار الطقوس المحلية التي كانت سارية من قبل في المدن الخاضعة للكرسي البطريركي، وثانيا انتشار طقس المدينة البطريركية وتعميمه في كل المدن الخاضعة للكرسي البطريركي الجديد. هكذا فإننا نرى الطقس القسطنطيني المعروف بالطقس البيزنطي يحل رويدا رويدا محل طقوس آسيا الصغرى والبنطس، كما حلَّ الطقس الأنطاكي محل الطقوس المحلية المختلفة التي كانت مستعملة في إيبارشية الشرق؛ أما الطقس الإسكندري فقد أبطل تماما كل الطقوس المصرية القديمة وحل محلها.
- أما في الغرب فقد ساد طقس روما على كل الغرب، ما عدا بعض الأماكن القليلة التي احتفظت بطقسها، مثلا في أبرشية ميلانو (إيطاليا)، فقد احتفظ بما يسمى اليوم بالطقس الأمبروزياني.
- الإمبراطورية الفارسية: أما خارج حدود الإمبراطورية الرومانية فقد تكونت كنيسة المشرق الكلدانية في بلاد ما بين النهرين وما حولها وتنظمت تحت رئاسة البطريرك الذي كان مقره في المدائن (سلوقيا- قطيسفون، بغداد) وكونت طقسا خاص بها.
- وفي أرمينيا ومنذ القرون الأولى تنظمت كنيسة وطنية ورتبت طقوسها الخاصة وقد اقتبست الكثير من الطقوس المجاورة.

وهكذا نلاحظ أنه خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ المسيحية تكونت خمس طقوس شرقية متميزة، وتكونت لها مراسيم خاصة للقداس وبقية الأسرار وصلوات الفرض وهذه الطقوس هي:

1. الطقس الإسكندري في مصر.
2. الطقس الأنطاكي في إبرشيات الشرق (سوريا، لبنان، القدس، عمان).
3. الطقس البيزنطي في آسيا الصغرى (تركيا).
4. الطقس الكلداني في بلاد ما بين النهرين وما حولها (العراق، ايران، الخليج، هند، الصن).
5. الطقس الأرمني في أرمينيا.

ثانيا: انتشار الطقوس الشرقية

في خلال القرون التالية نجد ظاهرتين كان لها الأثر الكبير في توحيد حركة التطور:

1. إن حركة التوحيد هذه لم تبطل تماما كل الاختلافات المحلية، فلقد نشأت طقوس جديدة فرعية تحت تأثير العوامل المذهبية والسياسية. نبذت بعض الكنائس السلطة المركزية ودعت لنفسها الاستقلال التام فحافظت على عاداتها.

2. الطقوس الأساسية انتشرت في بلاد عديدة، خاصة من خلال نشاط الكنائس التبشيري، إذ كانوا يحملون إيمانهم وطقوسهم إلى الأقوام التي كانوا يبشرونها.

يمكننا استعراض هذه التفرعات وهذا الانتشار على النحو التالي:

1. الطقس البيزنطي

حل هذا الطقس في مطلع القرن الثامن محل الطقس الروماني في كلابريا وصقليا في جنوب إيطاليا. وحل محل الطقس السوري في قبرص في مطلع القرن التاسع. وفي القرن التاسع أيضا حملت بيزنطيا إلى بلغارية ورومانيا معتقدها المسيحي مع طقسها البيزنطي. وفي القرن الحادي عشر اعتنق الروس الإيمان المسيحي على يد المرسلين البيزنطيين واتخذوا طقسهم. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر تخلت البطريركيات الملكية الإسكندرية وأنطاكيا وأورشليم عن طقسها السرياني القديم واعتنقت الطقس البيزنطي.

2. الطقس السوري أو الأنطاكي

تفرعت من هذه الطقوس طقوس ثلاثة

أ. **الطقس السرياني:** وهو الطقس المستعمل حاليا لدى السريان الأرثوذوكس والسريان الكاثوليك. كما انه أقرب الطقوس إلى الطقس الأنطاكي القديم.

ب. **الطقس الماروني:** وهو طقس الطائفة المارونية التي نشأت حول دير القديس مارون على ضفاف نهر العاصي بسوريا.

ت. **الطقس الملنكاري:** الملنكار طائفة من أهالي الملابار في جنوب غرب الهند رفضت الاتحاد مع الكرسي الروماني[6] بسبب محاولة بعض المرسلين البرتغاليين إلزامهم على اعتناق الطقس اللاتيني. فانضموا إلى البطريركية الأنطاكية للسرياني الأرثوذوكس واعتنقوا معتقدها وطقسها السرياني الأنطاكي. لكن مجموعة منها عادت فانضمت إلى روما سنة 1930م على يد رئيس الأساقفة مار إيفانيوس وزميله مار ثاوفيلوس.

3. الطقس الإسكندري

يتضمن طقسين

أ. **الطقس القبطي أو المصري:** وهو طقس مدينة الإسكندرية وتبناه الأقباط الأرثدوكس والأقباط الكاثوليك.

ب. **الطقس الحبشي:** وهو متفرع عن الطقس الإسكندري بسبب رئاسة اساقفة الكنسية المصرية للحبشة خلال قرون عديدة.

4. طقس كنيسة المشرق

يتفرع منه طقسان آخران

[6] باللاتينية Pontifex Maximus هو اللقب الرسمي لرأس الكنيسة الكاثوليكية خليفة بطرس، وأسقف روما، ورأس الدولة الفاتيكانية. والذي أصبح حصراً لبابا روما منذ القرن الحادي عشر، ليصبح رمزاً لسلطته الروحية والإدارية الشاملة على الكنيسة.

أ. **الطقس الكلداني:** وهو طقس كنيسة ما بين النهرين وحولها، والذي انتشر بواسطة المرسلين الكلدان إلى بلاد الخليج، والمغول والهند والصين. ثم تراجع وتقلص منذ غزوات الإسلام وتيمورلنك خان المغولي.

ب. **الطقس الملاباري:** وهو طقس المسيحيين الذين تلقوا الديانة المسيحية من المرسلين الكلدان وتبنوا طقسهم.

5. الطقس الأرمني

وهو الطقس الذي نشأ في أرمينيا وانتشر منها إلى كل بقاع العالم وخصوصا في بلاد الشرق الأدنى بسبب هجرة أتباعه، ولم يتفرع منه أي طقس آخر.

ثالثا: استعراض للكنائس الشرقية الرئيسية وطقوسها

1. الكنيسة البيزنطية

لمحة تاريخية

كانت بيزنطيا مدينة صغيرة على ضفاف البوسفور، ومركزا لأسقف خاضع لمطران مدينة تراكيا في ايليركيا في تركيا. سنة 330م اتخذها الإمبراطور قسطنطين[7] عاصمة له، ليكون قريبا من الحدود المشتركة مع الفرس بسبب الحروب المستمرة معهم. شيدها الإمبراطور قسطنطين ورتبها وجعلها آية في الجمال وأسماها "القسطنطينية". وسوف تسمى بعد سقوطها عام 1453م باسم "إسطنبول" وهي كلمة يونانية تعني "نحو المدينة".

بعدما أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية ازدادت أهمية هذه المدينة دينيا حتى تسمى ب"روما الثانية". في مجمع قسطنطينية الأول سنة 381م، الذي أعطى أولوية الشرف لأسقفها، تبدأ المنافسة مع البطريركيات القديمة على هذه الأولوية الشرفية وعلى النفوذ. وبدأت المنافسة مع بطريرك الإسكندرية قورلس. ينجح قورلس في حرم بطريركية القسطنطينية نسطور في مجمع أفسس سنة 431م. بيد أن بطريركية القسطنطينية نجحت في حرم المونوفيزية والبطريرك ديوسقروس في مجمع خلقيدونيا سنة 451م. وفي القانون 28 أكد آباء المجمع على مكانة القسطنطينية الثانية بعد روما، إلا أن البابا لاون رفض تثبيت هذا القانون لأنه يهضم حقوق كنيستي الإسكندرية وأنطاكيا وهما كنيستان لهما حقوق رسولية قديمة وعريقة أيضا.

ثم تبدأ المنافسة مع أسقف روما، إلى أن يحدث الانشقاق لأسباب واهية، حينها وضع موفد البابا صك الحرم ضد بطريرك القسطنطينية على مذبح كنيسة هاجيا صوفيا (آية صوفيا، الحكمة الإلهية) في 16 تموز سنة 1054م (رفعت روما هذا الحرم رسميا بتاريخ سبعة كانون الأول 1969).

طقوسها

[7] يعتبر أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية. ساهم بشكل مؤثر في مرسوم ميلانو في 313، الذي أعلن التسامح الديني مع المسيحية في الإمبراطورية الرومانية. دعا إلى اول مجمع مسكوني دعي بمجمع نيقية في عام 325م. بنى كنيسة القيامة على قبر يسوع، وقام بمساعدة الكنيسة المسيحية آنذاك بشكل كبير.

انتشرت هذه الكنيسة وفرضت طقسها بطريقتين:

1. كنائس تركت طقسها البيزنطي، ككنيسة القدس وكنيسة جورجيا.
2. من خلال تبشير البيزنطيين لشعوب أخرى، فأسسوا كنائس جديدة ونقلوا إليها إيمانهم وطقوسهم وهي: بطريركية القسطنطينية؛ بطريركية الإسكندرية؛ بطريركية انطاكيا؛ بطريركية القدس؛ كنيسة روسيا؛ كنيسة رومانيا؛ كنيسة اليونان؛ كنيسة صربيا (يوغسلافيا)؛ كنيسة بلغاريا؛ كنيسة جورجيا؛ كنيسة قبرص؛ كنيسة بولونيا؛ كنيسة ألبانيا؛ كنيسة التشيك؛ كنيسة سلوفاكيا.

اليوم، أن الكنائس الأرثوذوكسية لا تعترف للبطريرك المسكوني الساكن في القسطنطينية إلا بأولوية الشرف، إذ أن معظمها قد استقلت، ويترأسها اليوم إما بطريرك أو رئيس أساقفة. أهم ما يسترعي انتباهه من يحضر الطقوس البيزنطية فخامتها وذلك لأن الطقس البيزنطي كان طقس الإمبراطور وكانت المراسيم تجرى في الكنيسة الكبرى.

قداس الطقس البيزنطي: لهما قداسين؛ الأقدم هو قداس مار باسيليوس وقد تبناه اليوم أللاتين أيضا، ويسرد تاريخ الخلاص. والقداس الثاني هو قداس يوحنا فم الذهب وهو الأكثر استعمالا. ولديهم قداس خاص بالتناول فقط يحتفل به خلال أيام الصوم الكبير (عدا السبت والأحد)، هذا القداس يأخذ مكان القداس العادي الذي تمنع القوانين القديمة الاحتفال به خلال هذه الأيام.

اللغة ظلت اليونانية اللغة الرسمية للطقس. وتستعمل اليوم عادة لغة الشعب في كافة المراسيم (كالروسية والسلافية والإنجليزية والعربية).

الايقونات والصلوات: للبيزنطيين تقوى خاصة اتجاه الأيقونات، فلها مكانة كبيرة في المراسيم الدينية والطقوس، إلى درجة إننا نرى في كنائسهم حائطا يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة، عليه صور تمثل حياة المسيح وكبار القديسين. تعكس الايقونات للمؤمنين الذين يعيشون في عالم المرئيات حقائق عالم السماء فتربطهم بها. كما ان الطقس البيزنطي غني بصلوات رائعة قديمة مختصرة لكن مكثفة بالأفكار الروحية واللاهوتية وتعبر بصورة جميلة عن العقائد المسيحية ومشاعر الإنسان تجاه الله. اليوم، لا نستطيع أن نفهم دائما معنى الأيقونات لأسباب عديدة لأنها تشرح صلاة طقسية معينة ولأنها تفكر آباء الكنيسة البيزنطية وكتاباتهم اللاهوتية.

2. الكنيسة السريانية الأنطاكية

لمحة تاريخية

كانت أنطاكيا المقر الثاني للمسيحية بعد القُدس، وكانت المركز الثاني الإشعاع المسيحية. اتخذها بولس الرسول قاعدة أسفاره التبشيرية، ومنها أنطلق وإليها عاد. وفيها لُقب المؤمنون للمرة الأولى ب "المسيحيين". كما أقبل إليه القديس بطرس، وأقام فيها مدة طويلة، ثم غادرها إلى روما، لذلك ينتسب بطاركة شرقيون عديدون إلى أنطاكيا: "بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق" أي أبرشية المشرق الرومانية.

كانت أنطاكيا محافظة رومانية ذات ثقافة ولغة يونانية، وكونت لنفسها في المدينة ليتورجية خاصة لغتها اليونانية. أما في الأرياف مثل "الرها أو سرايدنا" وتسمى حاليا "اورفا" كانوا يتكلمون السريانية لأنها كانت مملكة مستقلة حتى سنة 200 م، وكانت مركزا ثقافيا سريانيا مهما لذلك دوّن طقسها باللغة السريانية.

لقد سبب مجمع خلقيدونيا عام (451م) انقساما في كنيسة أنطاكيا، فهناك جماعة بقيت متعلقة بالإمبراطور عقائديا والتي سميت ب "الملكيين" وأقروا ب "الطبيعتين في شخص المسيح" وهؤلاء تبنوا الطقس البيزنطي. أما القسم الآخر فرفض المجمع واعتنقوا "المونوفيزية" أي "الطبيعة الواحدة في المسيح" وسموا أحيانا باليعاقبة نسبة إلى الراهب يعقوب البرادعي الذي أرتسم أسقفا ومطرافوليطا سنة (543م) بمساعدة زوجة الملك يوستنيانوس "ثاودوره"، وأخذ يتنقل في مختلف نواحي سوريا ينشر أفكاره ويرسم الكهنة والأساقفة من مؤيديه وينظم الكنيسة.

كما أن هذه العقيدة انتشرت في بلاد ما بين النهرين، وكان مركزهم الرئيسي في تكريت، حيث كان مقر المفريان وهو النائب البطريركي على هذه المناطق. وفي القرن السابع عشر انضم جزء من السريان الأنطاكيين إلى الكنيسة الكاثوليكية وهو استمروا بممارسة طقسهم السرياني. وكما قلنا أنفا سنة 1930م جزء من سريان الهند الملقبين بالملنكار انضموا إلى روما وهؤلاء أيضا يستعملون هذا الطقس.

الطقس

تكون هذا الطقس من عناصر ليتورجيا أنطاكيا اليونانية المترجمة إلى السريانية. كما أننا نلاحظ حتى اليوم بعض العبارات اليونانية في الرتب الطقسية مثلا "سطومين قالوس... قوريلايسون؛ سوفياثيو ... فروكسومين"، ومن عناصر أخرى سريانية أصلا مثل مؤلفات مار أفرام. كما اشتهر في تنظيم طقوس هذه الكنيسة ديونيسيوس برصليبي المتوفي عام 1171م ومعاصره البطريرك ميخائيل الكبير الذي يرجع إليه الفضل في وضع كتاب الحبريات الأنطاكي.

يمتاز الطقس السرياني بضخامة عدد الانافورات "القداديس". فما عدا انافورة ما ر يعقوب لديهم 72 انافورة أخرى. كما أنهم دمجوا الساعات الكاتدرائية للصلاة (صلاة الصباح والمساء بالساعات الرهبانية "صلاة الساعة 3 ، 6، 9، منتصف الليل). ويمتاز كذلك هذا الطقس بكمية كبيرة من الألحان من الشعر الكنسي بحيث أبقت مكانا يسيرا للمزامير. وتجدر الإشارة إلى الطقس السرياني الشرقي الذي استعمل في بلاد ما بين النهرين واليوم يستعمل خاصة في كنائس الموصل فإنه يتميز عن الطقس الأنطاكي بصفائه من التأثير اليوناني وأصالته وعلاقته بطقس الكنيسة الكلدانية.

3. الكنيسة المارونية

لمحة تاريخية

ينتسب الموارنة إلى الراهب مار مارون الذي عاش خلال القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي، فلقد تتلمذ له جماعة من الرهبان في جوار مدينة أفامية (قلعة المضيق – سوريا). ولما توفي مار مارون سنة 410م بنوا بين أفامية وحمص ديرا كبيرا ورفعوا إلى جانبه كنيسة ولقب الدير ب"دير القديس مارون"، واشتهر هؤلاء الرهبان بإيمانهم القوي وتعلقهم الشديد لقرارات مجمع خلقيدونية.

وتبعهم شعب كثير من سكان البلاد واعتنقوا معتقدهم فتلقبوا "بالموارنة". كان لهذا الدير في القرن السابع رئيس شهير يدعى يوحنا مارون (685-707م). ولما كان الكرسي البطريركي الانطاكي الملكي شاغرا خلال المدة الواقعة بين 622و 742م، تم أنتخابه بطريركا عليهم فحافظوا بذلك على وحدتهم.

ولما جاء الغزو العربي الإسلامي (عام 636م) انتشروا في جبال لبنان وبنوا هناك كنائسهم وديورتهم ووطدوا مقر بطريركيتهم، ومن هناك انتشروا في قبرص وفي العالم كله. وأبان حكم الاتراك اعتبر البطريرك رئيسا مدنيا لهذه الطائفة. لقد بقيت الطائفة المارونية متحدة عقائديا مع الكنيسة الرومانية دائما دون أن يحدث هناك انفصال أو أي انقسام إنهم جميعا كاثوليك.

طقوسها

ينتسب الطقس الماروني إلى التقليد الأنطاكي والأورشليمي، ولكن بسبب تحصن الموارنة في الجبال حافظت لتورجيتهم على صفاتها المميزة العريقة، فلم يدخلها أي تأثير يوناني، لذا نرى تشابها كبيرا مع الطقس الكلداني، وهناك عناصر مشتركة لدى الطقسين مثلا: قداسهم الذي يدعى "شرر" أي "ثبّت" وهي الكلمة الأولى منه، يقابل قداس الكلدان مار ادي وماري، وكذلك صلوات رتبة التوبة وغيرها.

4. الكنيسة القبطية

لمحة تاريخية

إن جذور هذه الكنيسة ترتقي إلى القديس مرقس الإنجيلي، لذا تنعت بكنيسة "الكرازة المرقسية" أما معنى اسمهم أقباط فإنه يشتق من اسم وطنهم (إيجبت - مصر).

حظيت كنيسة الإسكندرية بمكانة سامية في العالم المسيحي القديم، قبل أن يعلو شأن القسطنطينية. فكان لها المرتبة الثانية بعد كنيسة روما. وبقيت الإسكندرية مدة طويلة مركز العلم والمعرفة والفلسفة والحضارة في الدولة الرومانية وأضحت مدرستها اللاهوتية في القرن الثالث برئاسة أوريجانوس منارة العلوم الدينية العالية. كان بين الإسكندرية والقسطنطينية بعض المنافسة في تزعم القيادة الدينية، فكان مجمع خلقيدونيا (سنة 451م) الذي رشق بطريرك الإسكندرية ديوسقوروس بالحرم. رفض الأقباط هذا المجمع وتبنوا المونوفيزيا. ونظرا لأن مصر كانت تحت سيطرة الإمبراطورية الرومانية فقد حاول الأباطرة الرومان فرض عقيدة خلقيدونيا قسرا على الأقباط، لذا كانوا الاقباط يتمنون التخلص من نير الرومان بأي وسيلة، وسنراهم يستقبلون العرب سنة (640م) كمحررين.

في العصور الوسطى كانت العلاقات جيدة مع روما، وبدأت حركة الانضمام إلى الكنيسة الكاثوليكية في القرن الخامس عشر، وازداد عدد المؤمنين والكهنة والأساقفة إلى أن أقيم أول بطريرك كاثوليكي سنة 1899.

الطقس

كانت الليتورجيا تقام خلال القرون الأولى باللغة اليونانية، وهي لغة الطبقة المثقفة في مصر؛ ولكن مجمع خلقيدونيا يمثل منعطفا. فلقد رشق بالحرم البطريرك ديوسقوروس وأُنتزعت منه المكانة الثانية ومن الإسكندرية وأعطيت إلى القسطنطينية. لذلك تعمق الاتجاه الاستقلالي لدى جماهير الشعب فترجموا تدريجيا لتورجيتهم اليونانية القديمة إلى لغتهم الوطنية القبطية. ولكن بعد قرون عديدة وضعت اللغة العربية إلى جانب القبطية في الاستعمال القبطي.

إن مصر هي مهد الحياة النسكية، ففي صحاريها نشأت الحياة الرهبانية وازدهرت وانتشرت وأشهر النساك القديس أنطونيوس الكبير الذي عاش في صعيد مصر ما بين الأعوام 251-356م وأول من حقق

الحياة الرهبانية المشتركة القديس باخوميوس 292-346م، الذي بنى ديرا في شمال "طيبة" ومن مصر انتقلت الحياة الرهبانية إلى الغرب بواسطة راهب اسمه كاسيانوس. إن الوسط الرهباني كان له تأثير كبير على الناحية الطقسية فإن طقوسهم مطبوعة بطابع رهباني لطولها وكثرة استعمال المزامير.

5. الكنيسة الحبشية

لمحة تاريخية

نقرأ في كتاب أعمال الرسل 26/8-40 إن الشماس فيليس عمّد قيّم ملكة الحبشة، فالمسيحية دخلت إليها مبكرا. ويقول المؤرخ روفينوس بأن أسيرا من مدينة صور اسمها فرومنسيوس بشر في الحبشة في القسم الأول من القرن الرابع. ولما كثر عدد المسيحيين فيها ذهب إلى الإسكندرية وقبل من يد القديس اثناسيوس رئيس اساقفتها الدرجة الأسقفية، وكانت هذه الرسامة الأسقفية أساس ارتباط كنيسة الحبشة بالكنيسة المصرية.

كان للكنيسة أنطاكيا تأثير في تعميق المسيحية وانتشارها في الحبشة في أواخر القرن الخامس جاء إلى الحبشة تسعة رهبان سوريون هم "القديسون التسعة" وأنشؤوا تسعة أديرة، وترجموا الكتاب المقدس عن السريانية واليونانية إلى الحبشية، ثم غلب فيما بعد تأثير الكنيسة القبطية فتأصل في الحبشة مذهب الطبيعة الواحدة.

وبقيت كنيسة الحبشة مرتبطة ببطريركية الإسكندرية القبطية. لم يكن للحبشة حتى سنة 1929م إلا أسقف واحد وهو أسقف مصري يختاره ويرسمه البطريرك القبطي. وفي سنة 1929م وبعد إلحاح شديد، رسم لهم البطريرك القبطي أربعة أساقفة أحباش يترأسهم الأسقف المصري. وفي عام 1951م انتخب الأنباء باسيليوس وهو من الأحباش رئيسا أعلى للكنيسة الحبشية ومنح عام 1959 لقب البطريرك الجثاليق. وتعد الحبشة من الأحباش الأرثذوكس. أما الكثلكة فقد ازدهرت فترة من الزمن في بدء القرن السابع عشر ثم اندثرت ولم تظهر مجددا إلا في أوساط القرن التاسع عشر، ففي الحبشة الآن أكثر من 150,000 كاثوليكي ولهم رئيس اساقفة في أديس أبابا.

الطقس

الطقس الأثيوبي ما هو إلا فرع من الطقس القبطي، وقد احتفظ بتأثير سرياني، ويمتلك تراتيل من الشعر الكنسي خاصة للعذر اء مريم ذات طابع أثيوبي خاص. كما يمتلك هذا الطقس 17 أنافورة أحدها أنافورة ألقديس هيبولبيس الروماني. أما اللغة الطقسية فهي لغة الجاز القريبة من العربية والسريانية، وتتسم هذه الليتورجيا بطابع أفريقي اذ يستعملون في المراسيم الدينية ولا سيما القداس الطبل والرقص الليتورجي.

6. كنيسة المشرق الكلدانية

لمحة تاريخية

إنها كنيسة بلاد ما بين النهرين التي اقتبلت نور الإنجيل منذ القرن الميلادي الأول، وكان لها في القرن الثالث حوالي 20 أسقفا. وفي مجمع ساليق سنة 410م انتخب مار إسحق مطران هذه المدينة جاثليق. ولأسباب عديدة اعتنقت هذه الكنيسة المذهب النسطوري سنة 484م. وحينما فتح العرب بلاد ما بين النهرين السنة 637م وطُرد الفرس، ازدهرت هذه الكنيسة، فقدم أبناء هذه الكنيسة خدمات علمية جليلة خاصة في مجال الترجمة من السريانية واليونانية إلى العربية، وتقلد الكلدان مناصب في الدولة. منذ القرن السابع وحتى القرن الحادي عشر نشاطوا في مجال التبشير، فأرسلوا مبشرين لينقلوا إيمانهم المسيحي ولغتهم وطقوسهم إلى إيران

والصين والتبت والهند. وثمة أكبر من شاهد على ذلك، أهمها نصب حجري في مدينة "سين كان فو" في الصين المنقوش السنة (781م) والذي يسرد دخول المسيحية على أيدي أبناء هذه الكنيسة إلى الصين منذ سنة 625م. كما أرسل البطريرك طيمثاوس الأول (780-823م) رسالة إلى أساقفة التبت يعدهم بتعيين رئيس أساقفة. ويبلغ عدد الملابار الهنود الذين يتبعون هذا الطقس أكثر من 2,000,000 ساكنين في ولاية كيرالا. كما وصل عدد وأبناء هذه الكنيسة خلال فترة الازدهار حتى بلغ80 مليون كلداني موزعين على 200 أبرشية. غير ان العدد تقلص منذ القرن 12 بسبب غزوات الاسلام والمغول. أما حركة الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية بدأت بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسيا (1439-1442م) وكانت حاسمة سنة (1553م) في عهد البطريرك سولاقا.

الطقس

ما يسترعي الانتباه في هذا الطقس هو البساطة، والرغبة في المحافظة على التقليد الطقس القديم. فمنذ القرون الأولى حافظت الكنيسة على هذا الطقس في أغلب رتبه وعلى عناصره القديمة ومخططه العريق، وهذا ما يساعد علماء الليتورجيا على فهم الطقوس الأخرى التي تطورت كثيرا حتى أضاعت معالم الرتب الأصيلة.

يستعمل الكلدان ثلاثة أنافورات للقداس: الأولى"قداس الرسل" منسوبة إلى القديسين أدي وماري مبشري المشرق وتستعمل في معظم أيام السنة ويقول العلماء بأن مخططها يرتقي إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي وتشبه صلواته البركة الفصحية التي قالها يسوع المسيح؛ الثاني منسوب إلى تيودورس المصيصي؛ الثالث منسوب إلى نسطوريوس.

أما بالنسبة للصلوات الفرضية، فإن هذا الطقس هو من الطقوس القليلة التي حافظت على طابعها الكاتدرائية (ليست رهبانية)، أي إن الساعات الرهبانية وعناصرها القليلة يمكن بسهولة تمييزها عن ساعات الصلاة الكاتدرائية. إنها إذن صلاة الشعب الذي يجتمع في الكنيسة ليسبح الرب صباحا ومساءا. ونجد فيها صلوات رائعة ترفع النفس إلى الله بكل سهولة كصلاتي النور الصباحييتين لمار أفرام والملفان نرساي، و ترتيلة الشكر بعد التناول و مستهلها "اللهم قوي الأيدي التي امتدت وتناولت القربان".

ساعات الصلاة في طقس كنيسة المشرق الكلدانية

1. **صبرا**: صلاة الصباح، كاتدرائية (شعبية).
2. **قوطاعا**: الساعة 9:00 صباحا (رهبانية).
3. **عدانا**: الساعة 12 ظهرا (رهبانية).
4. **صلاة الساعة التاسعة**: حاليا 3:00 بعد الظهر (رهبانية).
5. **رمشا**: صلاة المساء (شعبية).
6. **ليليا**: منتصف الليل (رهبانية).
7. **شهرا**: السهرة (وقت صياح الديك) الساعة 3:00 صباحا (إنها ساعة رهبانية خلال الأيام البسيطة وفي الأحد إنها سهرة كاتدرائية

كما ان هناك شخصية دينية عظيمة لعبت دورا حاسما في سيرة هذا الطقس، وهو البطريرك إيشوعياب الثالث 650م، الذي قام في الدير الأعلى "القوش" بتنظيم شامل لليتورجيا؛ فهو من نظم القداس ورتب بقية الأسرار وصلاة

الفرض، وكذلك البطريرك آيليا الثالث المعروف "أبو حليم" (1176-1190م) فقط رتب صلوات مهمة، خاصة صلوات الصباح.

7. الكنيسة الارمنية

لمحة تاريخية

كانت أرمينيا في مطلع القرن الرابع دولة مستقلة، يحكمها ملوك أرمن. وكانت المسيحية قد دخلت إليها عن طريق الرها في غضون القرن الثالث، ولم تنتشر انتشارا واسعا إلا في مطلع القرن الرابع، وذلك بواسطة رسول أرمينيا الكبير القديس غريغوريوس المنور (255-326م) وهو ابن الأسرة الأرمنية المالكة الذي درس في قيصرية- الكبادوك، وقبل المسيحية فيها حوالي سنة 300م، وعاد إلى بلاده يبشروا فيها بالديانة المسيحية، فاعتنقها الملك تيريدات ومعظم الشعب الأرمني وأصبح مار غريغوريوس بطريركا.

كانت اللغة الكنسية في أرمينيا حتى أواخر القرن الرابع اليونانية والسريانية. لم يكن للغة الأرمنية حروف أبجدية لكتابتها. فوضع لها الجاثليق اسحق الكبير في مطلع القرن الخامس حروفا للكتابة، وساعده على ذلك الراهب مسروب. ومن ثم قام كلاهما بحركة ترجمة واسعة النطاق عن اليونانية والسريانية، فنقلا إلى الأرمنية الكتاب المقدس وأهم تآليف الآباء ونصوص الليتورجيا. ومسايرة للإمبراطور الروماني زينون الذي كان يؤيد آنذاك المونوفيزية (مذهب الطبيعة الواحدة) ويحارب قرارات مجمع خلقيدونيا ويلاحق أنصاره، عقد الأمن مجمعا خاصا بهم في فاكارشابات سنة 491م نبذوا فيه مجمع خلقدونيا واعتنقوا رسميا المونوفيزيا.

بدأت بعض الجماعات تتحد مع الكنيسة الكاثوليكية في بداية القرن السابع عشر ومن ثم القرن الثامن عشر إلى سنة 1742م حيث اعترف البابا بنديكتوس الرابع عشر بالمطران أبراهام أزفيان (1741-1749م) جاثليقا للأرمن الكاثوليك باسم البطريرك بطرس الأول.

قاسى الأرمن صعوبات كبيرة سيما أبان الحرب العالمية الأولى، حيث استشهد منهم ملأيين الأرمن ولهم حاليا جمهورية صغيرة. إلا أن الكثير منهم نزح إلى سوريا وفلسطين ومصر ولبنان والعراق واليونان وبقية أنحاء العالم. وبسبب بعض الخلافات والظروف حدثت انقسامات في الكنيسة الأرمنية الأرثوذوكسية عبر الأجيال بحيث يوجد أربعة بطريركيات يجمعهم الإيمان والطقس واللغة، وهم:

1. بطريركية أتشماتزين: تأسست في القرن الرابع، ويلقب رئيسها بالبطريرك الأعلى وجاثاليق على جميع الأرمان.
2. بطريركية اسيس: تأسست في القرن الثالث عشر(1293م) ويسكن رئيسها اليوم لبنان في بلدة أنطلياس.
3. بطريركية القدوس: تأسست سنة 1311م.
4. بطريركية القسطنطينية: تأسست سنة 1461م.
5. هذا بالإضافة إلى البطريرك الكاثوليك الذي يسكن في لبنان.

الطقس

يستقي الطقس الأربعيني أصوله من مصادر عديدة أهمها الرها (ما بين النهرين)، ومن آسيا الصغرى والقدس نظرا لابتعادهم عن الإمبراطورية. نرى إنهم قد حافظوا على رتب وصلوات عريقة ومشتركة مع الطقس الكلداني. وقد حدث تأثير لاتيني بسبب الحروب الصليبية. لهم قداس واحد منسوب إلى مار أثناسيوس،

يحاط القداس بجمالية خاصة من الثياب الطقسية الزاهية والموسيقى والألحان الكنسية الرائعة، لا شك إنها أجمل الألحان.

خاتمة

لا يمكن دراسة ليتورجيا كنيسة ما دراسة علمية، بمعزل عن ليتورجيا الكنائس الأخرى. فلكي نستطيع فهمها علينا مقارنة الليتورجيات المختلفة بعضها بالبعض الآخر، لأن لها ينابيع مشتركة. لذا حاولنا استعراض مختلف الليتورجيات الشرقية.